أقمصة سيدنا يوسف عليه السلام
في القرآن الكريم
(دراسة فكرية تحليلية)

د.أحمد خزعل جاسم

كلية أصول الدين/ قسم الحديث

المقدمة

الحمد لله الذي أمرنا بطاعته، ونهانا عن معصيته، خصنا بخير ما أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، ومنَّ علينا بخير دين وشرع.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

قصَّ الله تعالى علينا من سير الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ما جعل عبرة وعظة للعالمين، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[1].

ومن هذه القصص قصة سيدنا يوسف عليه السلام التي قال عنها رب العزة (سبحانه وتعالى): ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾[2].

والقضية التي مثار الدراسة في هذا البحث، هي موضوع الأقمصة التي ذكرت في القصة، حيث نجد أنها ذكرت في مواقف مختلفة لكل واحدة منها دلالاتها الخاصة، فمرة كان القميص دليل الإدانة لإخوته (قميص الجفاء)، ومرة كان دليل البراءة ليوسف عليه السلام (قميص البراءة)، ومرة ثالثة كان قميص اللقاء المرتقب (قميص الشفاء).

ولأجل هذا نجد أن قصة يوسف عليه السلام في أقمصته، ولأهمية هذا الموضوع ولبيان دلالاتها، رغبت في الوقوف عندها وبيان آثارها.

وكانت منهجية البحث تقوم على دراسة النص القرآني وتحليل الأحداث وفق نظرة فكرية معاصرة، وبناءً على رؤية المتقدمين من علماء المسلمين.

قسمت البحث إلى أربعة مطالب:

الأول: بينت فيه المفهوم العام لعنوان البحث وأهميته.

وأما **المطلب الثاني:** فتكلمت فيه عن القميص الأول وهو قميص الجفاء، حيث عرضت فيه أهم الأحداث التي رافقته من مكائد ومحاولات لتصفية يوسف عليه السلام جسدياً.

وأما **المطلب الثالث** فتكلمت فيه عن قميص البراءة الذي كان شاهداً على عفة الصديق وبراءته مما نسب إليه.

وأما **المطلب الرابع** تكلمت فيه عن قميص الشفاء، وهو الهدية المعجزة حيث ظهرت فيه معجزة الله (سبحانه وتعالى) ليعقوب وولده يوسف عليه السلام.

وختمت البحث بذكر أهم النتائج والتوصيات، راجياً من الله العزيز الرحيم (سبحانه وتعالى) القبول والموفقية.

والحمد لله رب العالمين.

المطلب الأول: المفهوم العام

قبل البدء بالحديث عن دلالات أقمصة يوسف عليه السلام نجد من الواجب التعرف على المعاني اللغوية والاصطلاحية لكلا مفردتي عنوان البحث وهما:

(القميص ويوسف):

أولاً: معنى القميص في اللغة والاصطلاح.

١- معنى القميص في اللغة:

جاء في معنى القميص عند أهل المعاجم واللغة عدة أقوال ومن أهمها، ما يأتي:

ذكر ابن فارس (رحمه الله) معنى القميص فقال: (قَمَصَ القاف والميم والصاد أصلان: أحدهما يدل على لُبس شيء والإنشيام فيه، والآخر على نَزْوٍ شيء وحركة.

فالأول القميص للإنسان معروف. يقال: تَقَمَّصَه إذا لبِسه. ثم يستعار ذلك في كلِّ شيء دخل فيه الإنسان. فيقال تقمَّص الإمارةَ، وتقمَّص الوِلاية، وجَمع القميص أقمصةٌ، وقُمُص)[٣].

وجاء عن ابن منظور (رحمه الله): (القميص مفاضة تحت النطاق تشد الأزرار. والجمع أقمصة، وقمص الثوب قطع منه قميص)[٤].

ومن هنا يتبين لنا أن المعنى العام للقميص هو الصورة التمثيلية للإنسان وهيئته، ومن ذلك قميص الإنسان لأنه أخذ عن قياساته، فضلاً عن الحماية والستر الذي يقدمه لصاحبه، وكذلك الآثار التي تظهر عليه استجابة لتغير القميص على صاحبه.

٢- معنى يوسف عليه السلام في اللغة والاصطلاح:

ورد في لسان العرب ما يدل على أصل اشتقاق لفظة (يوسف) عليه السلام، حيث جاء فيه:

(الأسفُ: أشدُّ الحزن. وقد أسِفَ على ما فاته وتأسَّفَ أي تلهَّف. وأَسِفَ أي تلهَّف. وأسِفَ عليه أسَفاً: أي غَضِب. وآسَفهُ أغضَبَه. والأسيف والأسوفُ: السريعُ الحزنِ الرقيقُ. وقد يكون الأسيفُ الغضبان مع الحزن. والأسيفُ: العبدُ والجمع الأُسَفاءُ. وأرضٌ أسيفةٌ، أي رقيقةٌ لا تكادُ تُثْبت شيئاً)[٥].

وجاء عن ابن منظور قوله: (الأسف: المبالغة في الحزن والغضب)[٦].

كان سيدنا يوسف عليه السلام قد تحقق فيه الكثير من الألم والحزن وتحمل المشاق الكبيرة، ولكنه كان يمتلك من الإيمان العميق الذي إجتاز به كل المحن والابتلاءات العظيمة التي لاقته في رحلته الرسالية النبوية، فهو ابن الأنبياء ووريث بيت النبوة (عليهم السلام).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم [٧].

فهذا البحث الذي نتدارس فيه أهم الأحداث التي تعرض لها سيدنا يوسف عليه السلام، وكانت أقمصته دلالات تأييد وتمكين ونصر، حيث بقيت شاهدة على نجاته وعفته وتمكينه، وتحققت الرؤيا الصالحة له، وتجمع الإخوة بعد أن أوقع الشيطان بينهم، نسأل الله تعالى أن يوحد صف المسلمين ويجمع شملهم.

المطلب الثاني
قميص الجفاء

كان قميص يوسف عليه السلام هذا شاهد على أحداث أليمة مرت على صاحبه، وله دلالات مهمة في بيان أهم عوامل التفتت الأسري الذي أصاب بيت من بيوتات النبوة، وما لحق ذلك من آثار في الجوانب النفسية والاجتماعية، والسبل التي استخدمت في بيان الجرم ودوافعه، ثم ما لحق ذلك من التحقيقات الجنائية.

ولذلك كانت وصية يعقوب عليه السلام واضحة في إيقاف أسباب هذه المكيدة العظيمة والجريمة الكبرى، من خلال أخذ التدابير اللازمة لمنع هذا العمل المشين، ومن أهم هذه

التدابير مسألة الكتمان وخاصة فيما يتعلق بأمر نفسي كان من أهم أسباب زيادة الكراهية والحقد في قلوب إخوة يوسف عليه السلام.

بعد الرؤيا الصالحة التي رآها يوسف عليه السلام أمره والده بكتمانها،لأن إمارات هذه الرؤيا تشير إلى خضوع إخوته إليه، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له[٨]. ولهذا قال له ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾[٩].

ولأجل التعرف على دلالات قميص الجفاء في قصة يوسف عليه السلام، نجد من الضروري بيانها حسب تسلسل الأحداث ومن خلال الوقفات التالية:

الدلالة الأولى: دوافع الجفاء وأسباب المكيدة.

ساد اعتقاد لدى إخوة يوسف عليه السلام مضمونه أن يوسف أحب إلى أبيهم منهم، وأخص بالرعاية والإكرام لديه، وأوجدوا مبررات لهذا الاعتقاد حتى قالوا: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾[١٠].

كان هذا من أهم دوافع إثارة الحقد والكراهية في نفوس الإخوة تجاه يوسف وأخوه، والذي لأجله قصد الإخوة إيذاء يوسف والنيل منه، وأنهم قالوا ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾[١١] رغم أننا أفضل منه وقد تميزنا عليه بثلاث خصال: الأولى: أننا أكبر سناً منه، الثانية: أننا أكثر قوة وأكثر قياماً بمصالح الأب واحتياجاته منه، والثالثة: أننا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات عن أبانا والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات له ولنا[١٢].

لقد آثر يعقوب عليه السلام ولده يوسف عليه السلام بالمحبة القلبية وليس في ذلك مثلبة في يعقوب لأن المحبة أمر قلبي وليس ضمن الاستطاعة، ولكنه لم يؤثره على أخوته بالعطاء والمنافع المادية.

ومن خلال هذا يظهر أن مقاصد الأخوة من المكيدة والاغتيال أو الإلقاء في الجب لإبعاد يوسف عن والده يعقوب، وإخلاء الوجه الأبوي لهم والفوز بالقرب منه، فلا يحجبه يوسف وهم يريدون قلبه كأنه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خالياً من حبه، ويتوجه بهذا الحب إلى الآخرين [١٣].

وهذا هو الدافع والهدف الذي زينه الشيطان للأخوة في نيل مرادهم والدخول مرة ثانية إلى قلب أبيهم، وكأنهم خرجوا من قلبه حين كان يرى يوسف وبداخله قلبه، ولأجل هذا الهدف كان إضمار التوبة من قبلهم فقالوا: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾[١٤].

الدلالة الثانية: صور المكيدة

اقترح أخوة يوسف عليه السلام مجموعة من الخيارات كان الهدف منها إبعاده عن المكانة التي تميز بها على أخوته، وقد بين القرآن الكريم تلك الجلسات الخفية التي كانت تجمعهم خلف الأستار يتداولون فيها عن الطريقة المناسبة لتحقيق ذلك الهدف، قال تعالى على لسانهم: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾[١٥].

كان الهدف هو إزاحة يوسف عن مواجهة أبيهم لأنه يزاحمهم في محبة أبيهم ليخلو لهم وحدهم، والخيارات متعددة إما أن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم [١٦].

ولأن الغاية من هذه المكيدة هو إبعاد يوسف عليه السلام عن أبيهم ولكي يخلو لهم الأمر من بعده، اقترح أحدهم العدول عن قرار القتل إلى قرار الإبعاد والاكتفاء بالتغييب في الجب يلتقطه بعض السيارة، فيعيش بعيداً عن والده، وينفردوا هم بوالدهم.

الدلالة الثالثة: التخطيط للإنفراد بالهدف

سعى الأخوة إلى الانفراد بيوسف عليه السلام من خلال التخطيط واستمالة قلب أبيهم للموافقة على خروجه معهم، وكان ذلك ببيان أسباب رغبتهم في إخراجه معهم وكان من أهم هذه الأسباب ما يأتي:

تقدم الإخوة بسؤال أبيهم عن سبب عدم موافقته على خروج يوسف عليه السلام مؤكدين على سبب المكيدة الأول وهو استئثاره يوسف بالمحبة فقالوا ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾[١٧].

وهذا أسلوب معروف يتبعه بعض الناس في إصدار التهمة على المخاطب قبل تقديم الطلبات ليضيق عليه ويجعل إجابته إجابة المضطر الذي يسعى لتقديم البرهان العملي الذي يدفع به حجتهم وربما تكون الإجابة المستعجلة فيها من الآثار الخاطئة المستقبلية.

ثم تبع ذلك بيان الأخوة لسبب هذا الخروج وهذه السفرة الترويحية لصبي هو بحاجة إليها قالوا لأبيهم ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[١٨].

طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدوا أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط وقد اضمروا له ما الله به عليم[١٩].

ثم قالوا له ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ تعهد الأخوة بالسعي لحفظ أخيهم وإعادته سالماً بإذن الله إلى أبيهم، وفي هذه اللحظة تكلم يعقوب بعد الصبر الطويل على الاتهام وذكر أسباب السفرة التي فيها من الخفايا والمكائد والبلايا الكثيرة، ولم يكن يتمكن من الإجابة لأن مطالبهم إلى الآن ليست عليها شبهة ظاهره، وحين تعهدوا بحفظ يوسف جاء الوقت المناسب للرد على مطالبهم وبيان التخوف من مكيدتهم، وهذه هي زلة المخادع وسهوة الماكر.

فأجابهم وقال: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[٢٠].

هنا صرح الأب الشفيق الحنون بفرط محبته له، وأعلن عن تخوفه عليه أن يأكله الذئب ويحتمل هذا الخوف من المكيدة المضمرة فكنى بالذئب أو كان خوفه من الذئب حقيقة لأنه مكان كثير الذئاب [٢١].

الدلالة الرابعة: الفرج المرتقب قبل حصول المحنة

في خضم المحن وشدتها، وعند انقطاع السبل وقلتها، دائماً لا ينقطع الرجاء من الرؤوف الرحيم، وقد تسمع صوت يؤملك بالفرج القريب وهذا ما حدث للصديق يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[٢٢].

هاهم يلقون ضحيتهم في المكيدة ويفعلون الجريمة التي أرادت إبعاد النور النبوي من الوجود، وإزالة أسباب الهداية والرشاد، ذهبوا به لينفذوا المؤامرة النكراء، والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنها محنة وتنتهي، وأنه سيعيش وسيذكّر أخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ استقر الأمر على أن يجعلوه في غيابت الجب، حيث يغيب فيه عنهم، وفي لحظة الضيق والشدة التي كان يواجه فيها هذا الفزع، والموت منه قريب ولا منقذ له ولا

مغيث. وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء. في هذه اللحظة اليائسة يلقي الله في روعه أنه ناج، وأنه سيعيش حتى يواجه أخوته بهذا الموقف الشنيع، وهم لا يشعرون بأن الذي يواجههم هو يوسف الذي تركوه في غيابت الجب وهو صغير(٢٣).

ويعد الله سبحانه وتعالى يوسف عليه السلام أنه سيخبر أخوته بنجاته ولو بعد حين يريده رب العزة سبحانه وتعالى قال تعالى على لسان الصديق يوسف عليه السلام بعد الفراق الطويل، وولايته لخزانة الأرض: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾(٢٤).

يؤكد القرطبي هذا المعنى فبين معنى (قوله تعالى ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه أوصى إليه أنه يلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا، فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجب تقوية لقلبه وتبشيراً له بالسلامة. الثاني: أنه أوصى إليه بالذي يصنعون به؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجب إنذاراً له ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى آخره لما أفضى إليه الأمر ألا يخبر أباه وإخوته بمكانه)(٢٥).

الدلالة الخامسة: تنفيذ المكيدة وأساليب التحقيق في الجريمة.

عاد الإخوة بعد أن فعلوا ما أرادوا من رمي يوسف عليه السلام في غيابت الجب، وهم يحملون قميص الاتهام بعد أن ظنوا فيه نجاتهم، لكن كانت حكمة الله تعالى تقتضي ذلك، قال تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾(٢٦).

استخدم أخوة يوسف عليه السلام مجموعة من التحرزات لعلها تنجيهم من التهم وتبعد الريبة عنهم، ومنها ما يأتي:

جاءوا في ظلمة الليل حتى لا تظهر على وجوههم آثار الكذب،علماً أن الرعاة في غالب أمرهم لايتأخرون إلى العشاء، وما ذاك لأمر يرشد إلى الريبة فهم جاءوا (في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار ضد ما جاؤوا به من الاعتذار)(٢٧).

وكذلك أكدوا أنهم ذهبوا للاستباق وتركوا يوسف وحيداً عند الأغنام، وهو ما كان يخشاه يعقوب عليه السلام، لما كانوا عالمين بأن يعقوب عليه السلام لن يصدقهم، أكدوا فقالوا: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ خرجنا للسباق ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ ﴾ أخانا ﴿ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ بقي عند ثيابنا ومتاعنا ﴿ فَأَكَلَهُ ﴾ أنفرد الذئب به ولا يوجد من يدافع عنه فأكله..

وحيث لابد في المعصية من أن يقترن بها الخذلان، حيث انقلبت كل أعذارهم فكانت في حقهم أدلة الإدانة وإثبات الجرم الذي فعلوه، فسبحان من تتبع عثراتهم، وعاقبهم عليها بما يستحقوه، ثم الله يتوب على من تاب.

جاءوا بدليل لعله يكون شافعاً لهم ﴿ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي: بدم هو كذب، لأنه لم يكن دم يوسف. وقيل: بدم مكذوب فيه. أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه، فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه؟ فاتهمهم [٢٨].

المطلب الثالث
قميص البراء

يصف رب العزة سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، تلك المراودة الآثمة من امرأة العزيز، والتي قابلتها المدافعة الطاهرة التي تمثلت العفة فيها بكل صورها من قبل الصديق يوسف عليه السلام يقول تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [٢٩].

نقف عند المحنة الثانية ليوسف عليه السلام، وهي أشد وأعظم من المحنة الأولى، لما فيها من مواجهة صعبة وامتحان لعفة الإنسان، أمام المغريات التي تواجهه في فتنة عظيمة قال عنها رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ

مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾(٣٠).

هذا هو النموذج الرائع الذي ضربه الله سبحانه تعالى لنا حتى نتعظ ونعتبر وحتى يعلم الناس أجمعين أن العفة لا تكون هكذا بمجرد الكلمات والخواطر، وإنما لابد لها من همة وإرادة.

وفي هذا المحنة هناك مجموعة من الدلالات والعبر والتي من أهمها ما يأتي:

الدلالة الأولى: الاستعانة بالله تنجي من مزالق الشيطان وحبائله

إن الاستعانة بالله تعالى واللجوء إليه والاستعاذة به والفرار إليه هي من أقوى الأسباب التي تنال بها العفة، يقول الله سبحانه تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾(٣١).

يستعيذ يوسف عليه السلام بالله سبحانه وتعالى مما تدعوه إليه من ممارسة الفاحشة وهذا من أتم الوجوه فإن ظلمة المعصية لا تجابه إلا بنور اليقين وكيف له الإساءة لمن أحسن إليه وأكرمه ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ إن هذا هو سيدي العزيز الذي أحسن مثواي وأحسن تعهّدي ورعايتي حيث وأمرك بإكرامي فكيف يمكن أن أُسيء إليه بالخيانة مع أهله! (٣٢).

لقد حفظ الله يوسف عليه السلام من فتنة عظيمة، وذلك لثقته الكبيرة بربه تبارك وتعالى، ولذلك فلا يغتر إنسان بنفسه، لا يغتر إنسان بثقته بل ينبغي عليه أن يتهم نفسه دوماً ليرفع في نفسه الهمة ويقوي الإدارة وأن يستعين بالله عزوجل لكي يصرفه عن السوء والفحشاء.

فهذا النبي الكريم يوسف عليه السلام لما طلبت منه امرأة العزيز وهمت به وهم بها التجأ إلى الله تعالى سبحانه: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ أي استعيذ بالله منك ومن شَرِك، ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣٣).

الدلالة الثانية: عدم الاغترار بالنفس والركون إليها

ينبغي على الإنسان ألا يعتمد على الثقة الزائدة بالنفس والاغترار بها، لما جاءت النسوة إلى امرأة العزيز ولُمنها على فعلتها قالت: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٣٤).

التجأ يوسف عليه السلام إلى الله رب العالمين: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[٣٥]، هنا يجب على المسلم عقد مقارنة بين الفاحشة اللذة والشهوة الحاضرة التي توفرت كل أسبابها، وبين السجن وتقييد الحرية، وفي مثل هذه المحنة تظهر حقيقة الإيمان لأن الإنسان إذا خلا بمحارم الله انتهكها، ولكن يوسف الصديق عليه السلام أختار السجن لأنه أحب إليه من الفاحشة، ودعا ربه أن يصرف عنه كيدهن ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾[٣٦]. وهكذا فإن الإنسان إذا ألمّت به فتنة ينبغي أن يلجأ إلى الله عزوجل، ولا ينبغي أن يخوض هذه الفتنة بغير استعانة بالله.

(طلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعاً من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية إذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل الرجوع للوقوع في المعصية خالياً عن معارضه، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾)[٣٧].

لأن تلك اللذة كانت تستعقب آلاماً عظيمة، وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، وذلك المكروه وهو اختيار السجن، كان يستعقب سعادات عظيمة، وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة، فلهذا السبب قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾.

يقول ربنا في الذين اتقوا إذا جاءهم الشيطان وسول لهم سوء الأعمال، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[٣٨]، الذين اتقوا إذا مرّ عليهم طيف أو خاطرة من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، يكون ذلك بالاستعاذة من الشيطان وبالاستعانة بالله عزوجل.

الدلالة الثالثة: الدخول على النساء

إن التساهل من المسلمين في دخول الرجال والخلوة في البيوت وغيرها من أكثر أسباب وقوع الكثير من الحوادث التي تسببت في انتهاك الأعراض، على المسلم الحذر من الخلوة المحرمة مهما شعر بقوة شخصيته، أو رجاحة عقله، الحذر من فتنة النساء، سواء بالابتعاد عن دواعي الفتنة، أو مقدمات الرذيلة، مهما كان التبرير[٣٩]. العزيز الذي كان بالفعل فاشلاً في الحفاظ على بيته من الفتنة، وكانت زوجته متسلطة مستبدة في تحقيق رغبتها وشهوتها، حتى تجرأت المرأة على أن تطلب هذا الطلب علانية بين النساء، تطلب

من يوسف عليه السلام أن يفعل فيها الفاحشة، تعمدت امرأة العزيز المعصية لأنها وجدت ضعف زوجها وتوفرت الأسباب التي تمكنها من الوقوع في المعصية، ولكن ديننا الحنيف حرم من اقتراب الزنا، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾ لأن (أسلوب الإسلام يعتمد في البداية على الوقاية والبعد عن الجريمة تطهيراً للضمائر وتهذيباً للنفوس)(٤٠).

الدلالة الرابعة: الإشاعات

فلولا الإشاعات لما علمت النسوة بأمر امرأة العزيز: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾(٤١)، ووصل الخبر إلى نسوة في المدينة فتحدثن به، وقلن منكرات على امرأة العزيز: امرأة العزيز تراود غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، وقد بلغ حبها له شغاف قلبها، إنا لنراها في هذا الفعل لفي ضلال واضح.

بدأ الموضوع ينتشر بشكل سريع خرج من القصر إلى قصور الطبقة الحاكمة، وجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث، إن خلو حياة هذه الطبقات من المعنى، وانصرافها إلى اللهو، يخلعان أهمية قصوى على الفضائح التي ترتبط بشخصيات شهيرة، وزاد حديث المدينة، وشاع الخبر في أرجاء المدينة.

(وشاع الخبر في أرجاء المدينة، وأخذت ألسنة النساء تلوك في امرأة العزيز، استهجاناً ولوماً لها على صنعها، لحيف تعشق سيّدة عبدها؟ وكيف تهوى وتحبّ خادمها؟)(٤٢).

ومن أعظم الآداب في هذا الباب الكف عن إشاعة الفاحشة في المؤمنين ومحبة ذلك والرغبة فيه عياذاً بالله. إذا انتشر بين الأمة الحديث عن الفواحش ووقوعها فإن الخواطر تتذكرها ويخف على الأسماع وقعها، ومن ثمَّ يدبُّ إلى النفوس التهاون بوقوعها ولا تلبث النفوس الضعيفة والخبيثة أن تقدم على اقترافها ولا تزال تتكرر حتى تصير متداولة، وانظر ما تفعله كثير من وسائل الإعلام في الناس والنفوس ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾(٤٣).

الدلالة الخامسة: دلالة البراءة

قَّر يوسف عليه السلام بعفته وطهره عن الفاحشة وتسلطها، فأظهر الله تعالى براءته، وأبان حجته الظاهرة وأشهد الآيات الواضحة على ذلك:

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[٤٤].

كانت العلامات كثيرة ودالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق فالأول: أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر أن عبداً لها والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد، والثاني أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يفر من المعصية ليخرج والرجل الراغب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه، والثالث: إنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها فكان إلحاق هذا الفتنة بالمرآة أولى، الرابع: أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تدل على رغبته بالمعصية بل بينهم الصديق الأمين، الخامس: أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاماً مجملاً مبهماً حين قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ولم تقل ما جزاء يوسف لأنه أراد بأهلك سوءاً، وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمر ولو أنه كان متهماً لما قدرعلى التصريح باللفظ الصريح فإن الخائن خائف قال هي راودتني عن نفسي، سادساً: قيل: إن زوج المرأة كان عاجزاً وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فإلحاق هذه بها أولى، فلما حصلت هذه الإمارات الكثيرة الدالة على إن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف سكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرآة كاذبة، ثم إنه تعالى أظهر يوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة وهو قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ حيث رصد الله تعالى بمنته وفضله شاهداً يدفع عن يوسف عليه السلام مظلمته، فقميصه قُدَّ من دبر[٤٥].

الدلالة السادسة: تسلط الطغاة

كان دخول يوسف عليه السلام للسجن بسبب انتشار قصته مع امرأة العزيز ونساء طبقتها، خير وسيلة لإسكات هذه الألسن، لأن كل الآيات تدل على براءته، لتنسى القصة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[٤٦].

وضحت الآية الموجزة الحقيقة والبرهان الكبير بأن يوسف عليه السلام بريء مما نسب إليه،وأكدت على الظلم والجحود الذي يملكه الملوك والجبابرة فهم لا يزنون الأمور إلا بموازين يختارونها لأنفسهم.

(لقد كانت العدالة تقتضي بأن يكرم يوسف على نزاهته وعفته وأن تعاقب زوجة العزيز على جنايتها وما أجنته يدها، لكن الأمر كان بالعكس فقد قُدّم يوسف البريء التقي الطاهر، فدية لسمعة تلك التي استهانت بكرامتها وكرامة زوجها وأرادت أن تلحق به عار الخيانة، فبرئت تلك المرأة وأدين يوسف، وحكم عليه السجن، فمكث في السجن سنوات عديدة تبلغ سبعاً، كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾)[٤٧].

إن حلول المشكلات في الحكم المطلق هي السجن، وليس هذا بغريب على من يعبد آلهة متعددة، فإن من يجعل أله للنور وأخر للظلمة، تصدر منه هذه الموازين الظالمة الكافرة،لقد كان في قصة يوسف شاهداً حياً يصيب حتى الأنبياء. صدر قرار باعتقاله وأدخل السجن. بلا قضية ولا محاكمة، ببساطة ويسر، لا يصعب في مجتمع تحكمه آلهة متعددة أن يسجن ثابت القلب هادئ الأعصاب، لأنه صاحب قضية ومترفع بعفافه عن فواحشهم ورجسهم،ولكن فرحته بنجاته من المعصية هونت عليه أيام السجن والإعتقال.

المطلب الرابع
قميص الشفاء

بعد أن وجد يوسف عليه السلام تلك المحن العظيمة والفتن الكبيرة التي استطاع النجاة منها بفضل الله سبحانه وتعالى، ثم بما يمتلك من إيمان صادق ويقين ثابت، جاءت البشائر تترى عليه لتجمع الولد مع أبيه وتتحقق الرؤيا الصالحة، وتظهر معجزة الأنبياء بقميص جعل سبباً للفرج وإشارة لقرب الحبيب من حبيبه، وظهرت فيه معجزة الشفاء ،إنه هدية الولد لأبيه قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾[٤٨].

هذا هو قميص يوسف عليه السلام الذي تمثلت فيه أبواب الفرج المرتقب، والفرحة الغامرة بعد فترات المحن الطويلة التي أطفت أنوار العيون الباصرة.

ظهرت سمات الإعجاز النبوي من خلال بيت النبوة الشريف، في بيت الكرماء (يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) عليهم السلام.

وفيه الكثير من العبر والعظات نحاول أن نجملها بما يأتي:

الدلالة الأولى: معجزة إلهية للنبيين الكريمين عليهم السلام

ظهرت آيات الإعجاز الإلهي الباهر حين أوصل الله تعالى رائحة قميص ابنه يوسف إليه، وفيها عبرة وعظة ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ خرجت منطلقة من مصر إلى الشام،﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أي قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ (قال مالك بن أنس رضي الله عنه: إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه. وقال مجاهد: هبت ريح فصفقت القميص فراحت روائح الجنة في الدنيا. واتصلت بيعقوب، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص: فعند ذلك قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ ﴾ أي أشم)[٤٩].

سبحانه وتعالى في ملكوته وحكمته أوصل بشائر الخير إلى يعقوب عليه السلام، والحقيقة أن لأخبار الخير والشر تأثيرات نفسية وقلبية، بل ربما تفرض تأثيراتها على الجانب الجسدي وهذا ما حصل ليعقوب حين أبيضت عيناه من الغم وهو كظيم وحين جاءت نسائم قميص الجنة ووضعه على وجهه ارتد بصيراً.

الدلالة الثانية: علم الله ليوسف ومعجزته الظاهرة:

وهذه معجزة أخرى حينما أعلم الله يوسف عليه السلام بتأثير قميصه على نفسية والده وإمكانية عودته إلى الشفاء من مرضه، (كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل؟ ذلك مما علمه الله. والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة. ومالها لا تكون خارقة ويوسف نبي رسول ويعقوب نبي رسول؟)[٥٠].

وقد أكدت بعض الدراسات الحديثة أن لعرق الإنسان تأثير في معالجة الماء الأبيض أو الأسود الذي يصيب العين، أستدلالاً من هذه الآية الكريمة، فضلاً عن عنصر المفاجأة الذي يحقق الشفاء بفضل الله سبحانه وتعالى.

الدلالة الثالثة: إدخال السرور من مبدأ الهم

جاء البشير حاملاً مايسعد يعقوب ويدخل السرور إليه بعد فترة من الألم والحزن ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ وإذا بالذي ذهب بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب يذهب إليه اليوم بالقميص فيخبره أن ولده حي فيفرحه كما أحزنه، خرج حافي القدمين حاسر الرأس مسرعاً حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً. ﴿ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ يعني: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، ﴿ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ فعاد بصيرا بعد ما كان عمي وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا. وروى أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أيّ دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة [٥١].

الدلالة الرابعة: هم الأمة مقدم على هم الأفراد

لم يسر يوسف نحو أبيه رغم أن واجب البر يقتضي ذلك لكن هم الأمة مقدم على هم الأفراد ورعاية مصالحها أولى بالأهمية ولأجل ذلك رغب يوسف عليه السلام البقاء في مكانه مع

ما في ذلك من إكرام لوالديه وتحقيق للرؤيا التي رآها في سجود أخوته إليه، قال تعالى وهو يصف تلك النهاية المباركة لتمكين رسله وأنبيائه عليهم السلام: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[٥٢].

يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل التي رأيتها أيام الطفولة قد جعلها ربي حقا صدقا وقد أحسن بي إذا أخرجني من السجن ولم يذكر محنة الجب لئلا يكون تذكير لمحنة والداه بمفارقته وبما فعله الأخوة معه وجاء بكم من البدو من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي أفسد بيننا إن ربي لطيف لما يشاء لطيف التدبير، إنه هو العليم بوجود المصالح والتدابير الحكيم الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة سبحانه وتعالى [٥٣].

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات، وباستغفاره تنزل البركات، وبالتوبة إليه تبدل السيئات إلى حسنات، والصلاة والسلام على المؤيد بالمعجزات الباهرات وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد وجدت في هذا البحث الكثير من الحكم والدلالات الإلهية التي يجب الانتفاع بها في دراسة القصص القرآني، والوقوف عندها بتدبر لأخذ العبرة والعظة.

حيث وجدت في القميص الأول ضرورة عدم إشعار أحد أفراد العائلة بالتمييز والمحبة من بين أقرانه لأن ذلك يورث البغضاء والعداوة، وفي الوقت ذاته ينبغي أن لا يصل الحال إلى محاولة قتل الأخوة لأخيهم.

وفي الوقت ذاته نجد أن الله تعالى يعثر المذنب ولا يمكنه من النجاة بسبب فعله السيئ وعواقبه الوخيمة، حيث يطفئ الله تعالى نور بصيرتهم.

وأما القميص الثاني فإنه فيه حكمة الله تعالى تتجلى بفرار الصديق يوسف عليه السلام من نداء المعصية إلى قمة العفاف، لأنه لو دفع المعصية بيده لمزق قميصه من قبل ولم يمزق من دبر، ولكن قضى الله أمراً كان مفعولاً.

وأما القميص الثالث ففيه آيات الإعجاز الإلهي والكرم الرباني في معافاة المبتلى ورفع درجات الصديق وسجوده الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له بفضل الله تعالى ومنته.

الهوامش

(١) سورة يوسف: الآية (١١١).

(٢) سورة يوسف: الآية (٣).

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: ٢٧/٥.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، باب الصاد، فصل القاف: ٨٢/٧.

(٥) الصحاح، الجواهري، باب الفاء، فصل الهمزة.

(٦) لسان العرب، باب الفاء، فصل الهمزة. ٤/٩.

(٧) البخاري، كتاب تفسير القرآن.باب قوله ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما اتمها على ابويك من قبل.رقم الحديث: ٤٣٢٠.

(٨) ينظر: سعيد حوى، الأساس في التفسير: ٢٦٣١/٥.

(٩) سورة يوسف: الآية (٥).

(١٠) سورة يوسف: الآية (٨).

(١١) سورة يوسف: الآية (٨).

(١٢) ينظر :الرازي، مفاتيح الغيب: ٩/ ٥٩.

(١٣) ينظر :سيد قطب. في ظلال القرآن: ٦٩٩/٤.

(١٤) سورة يوسف: الآية (٩).

(١٥) سورة يوسف: الآيات (٩- ١٠).

(١٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٠٦.

(١٧) سورة يوسف: الآية (١١).

(١٨) سورة يوسف: الآية (١٢).

[١٩] ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ١/ ٢٣٠.

[٢٠] سورة يوسف: الآية (١٣).

[٢١] ينظر: الشوكاني، فتح القدير: ٣/ ١٠.

[٢٢] سورة يوسف: الآية (١٥).

[٢٣] ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن: ٢٩٦/٤.

[٢٤] سورة يوسف: الآية (٩٠).

[٢٥] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٩٥/٩.

[٢٦] سورة يوسف: الآيات (١٦- ١٨).

[٢٧] البقاعي، نظم الدرر، ١٠/ ٣٠.

[٢٨] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢٥٩- ٢٦٠.

[٢٩] سورة يوسف: الآيات (٢٣- ٢٩).

[٣٠] سورة آل عمران: الآية (١٤).

[٣١] سورة النور: من الآية (٢١).

[٣٢] ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٣٧٩/٣.

[٣٣] سورة يوسف: الآية (٢٣).

[٣٤] سورة الآية (٣٢).

[٣٥] سورة يوسف: الآية (٣٣).

[٣٦] سورة يوسف: الآية (٢٠١).

[٣٧] الرازي، مفاتيح الغيب: ١٨/١٠٦.

[٣٨] سورة الأعراف: الآية (٢٠١).

[٣٩] الدكتور عادل الشويخ، مسافر في طريق الدعوة، ص٢٦٩.

[٤٠] د.عبد الرؤوف عبد العزيز البرداودي، دراسة في علم الاجتماع الإسلامي، ص٦٥.

[٤١] سورة يوسف: الآية (٣٠).

[٤٢] محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، ص٢٧٦.

[٤٣] سورة النور: الآية (١٩).

[٤٤] سورة يوسف: الآيات (٢٥- ٢٨).

[٤٥] ينظر :الرازي، مفاتيح الغيب: ١٨/ ١٢٥- ١٢٦.

[٤٦] سورة يوسف: الآية (٣٥).

[٤٧] الصابوني، النبوة والآنبياء: ص٢٧٧.

[٤٨] سورة يوسف: الآية (٩٣- ٩٨).

[٤٩] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٩/٢٦٠.

[٥٠] سيد قطب، في ظلال القرآن: ٥/ ٤٦.

[٥١] تفسير البغوي: ٢/٢٤٩.

[٥٢] سورة يوسف: الآية (١٠٠).

[٥٣] ينظر :البيضاوي، أنوار التنزيل: ٣/ ٣٠٩.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (١٩٤-٢٥٦هـ). الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت/لبنان. (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٢. البغوي، الحسين بن مسعود الفراء (ت٥١٦هـ)، معالم التنزيل، دار المعرفة، بيروت. تحقيق: خالد العك ومروان سوار، ط٢، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

٣. البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، نظم البقاع. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، (١٣٩٦هـ).

٤. البيضاوي، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت٧٩١هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ).
٥. الجواهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار الكتب العربية، مصر، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م).
٦. الرازي (ت٦٠٦هـ) التفسير الكبير. دار الكتب العلمية. طهران. ط٢ (د.ت)
٧. إبن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).
٨. أبو السعود (ت٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. (د.ت).
٩. سعيد حوى، الأساس في التفسير، مطبعة دار السلام، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
١٠. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧ (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).
١١. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت. تحقيق: علي محمد عمر، ط١، (١٣٩٦هـ/١٩٧٥م).
١٢. الصابوني، محمد علي، النبوة والأنبياء، دار الصابوني، ط١، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
١٣. الدكتور عادل الشويخ مسافر في طريق الدعوة، دار المنطلق، ط١.
١٤. د. عبد الرؤوف عبد العزيز البرداودي، دراسة في علم الاجتماع الإسلامي، الإسلام وعلم الاجتماع العائلي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م).
١٥. القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
١٦. ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي أبو الفداء (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم. دار الجيل، بيروت، ط١ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

١٧. ابن كثير، البداية والنهاية، (د.ت).
١٨. ابن منظور، محمد بن مكرم العلامة أبي الفضل جمال الدين الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار الفكر، د. ت، بيروت.